الفاتحة

— الفصل الاول —

على ضفاف النيل، تحت ظل النخيل ، على مقعد من خشب في مقدمة الجزيرة، هناك كان يجلس شاب في مقتبل العمر حاسر الرأس يلاعب شعره النسيم يحول عينيه تارة الى الماء وطورا الى السماء مبتسما مرة وعابسا مرة أخرى. كان هذا الشاب يرتاد هذا المكان لجمال موقعه وطلبا للراحة بعد عناء الاعمال ولما كان يوحي اليه هذا الموقع من الافكار التي كان يلذ له التفكير فيها . لم يكن يرتاح الى الاخذ بالظواهر فقط رغم حسنها او قبحها بل كان يحب التعمق في كل شيء ليصل الى معرفة اصول ما يشاهد أو يسمع فانه كان يطلب الحكمة في ارجاء هذا الكون.

انما الحكمة بنت الاختبار * تقتنيها النفس بعد الاعتبار

او بالأحرى كان يبحث عن الحقيقة بنفسه لانه في اوائل سني تلمذته كان قد سمع هذا البيت فتنبهت له حواسه واخذ من ذلك الحين في التفكير رغم ما كان يبدو عليه

مراداً من دلائل الخفة وعدم الاكتراث. لذا تربت في نفسه ملكة البحث رويدا رويدا الى ان تملكت منه فاصبحت فيه طبعا لا يهنأ له عيش الا بالتفكير للوصول الى الحقيقة أو البحث عنها . لم يكن يقرأ كثيرا لانه كان كثير الخيلاء لا يريد ان يتأثر بافكار الغير بل كان يريد ان يربي نفسه بنفسه ليكون له رأي خاص عن اقتناع شخصي الا انه كان اذا اثبت له بعد ذلك فساد رأيه ينقاد الى الصحيح بسرور عظيم وشكر . كان يحب المباحثة والاكثار منها مع كل الناس من مختلف الطبقات والاجناس الكبير والصغير العظيم والحقير نساء ورجالا فقية وفتيات لاعتقاده بان الروح العظيمة ليست لها طبقة او امة مخصوصة بل توجد في عموم الطبقات والاجناس. وكم كان اغتباطه عظيما عندما كان يتغلب رأيه على رأي محدثه فينقاد هذا مقتنعا اليه. خصوصا اذا كان المقتنع من ممتازي الناس ومعروفيهم ان علما أو مركزاً أو جاهاً

كانت عيشة صاحبنا هذا مزدوجة حياة الحاضر وحياة الماضي التي كانت دائما ماثلة بتذكاراتها امام عينيه لانه كان

يقول ان الانسان الحقيقي الذي يمكن ان يدعى بحق انسانا هو ذاك الذي يعيش بنفسه وبقلبه وبتذكاراته اكثر مما يعيش بجسمه.

ففي عشية ذات اليوم بينما كان شابنا جالسا على مقعده كالمعتاد اذ شعر بانزعاج خفي اخذ عليه افكاره فأخذ يبحث عن السبب في نفسه وحواليه. وفيما هو حائر لا يعرف لهذا من داع اذ ابصر على بعد خطوات منه شبحا يتحرك من وراء الاشجار قادما اليه ولما دنا وتبينه اذا به احد الدراويش رث الثياب عاري الرأس ضئيل الجسم يناهز السبعين من العمر ذو لحية بيضاء براق العينين متأبطاً جرابه متوكئا على عصا طويلة يمشي بتثاقل شديد كمن اعياه السير ولم يكد يقترب من صاحبنا حتى خفض نظره وحيا بكل احترام وطلب صدقة فناوله صاحبنا قطعة بقرشين فأخذهما فرحا واراد أن يقبل يده شكرا وامتنانا. اما صاحبنا فقد سحب يده وتباعد قليلا فقال له الدرويش بارك الله فيك يا سيدي لقد أغنيت عوزي الليلة وقد اردت أن أقبل يدك علامة الشكر العظيم فلم تشأ. لذا فليكافئك الله

عني ويجزيك خيرا وينيلك مرامك. وهمّ بالسير الا ان صاحبنا لم يكد هذا الدعاء يصل الى سمعه حتى شعر بارتياح شديد ومال الى الاكثار من محادثة هذا الشيخ الغريب. فاستوقفه قائلا. يا هذا اراك تعبا والمسافة بيننا وبين المدينة قريبة لا تتطلب جد السير. فاجلس هنا قليلا لنتحادث فالمكان جميل والهواء عليل وخذ هذه قطعة بقرشين اخرى وهذه سيجاره فدخنها فاخذ الشيخ القرشين والسيجاره وشكر وجلس

— الفصل الثاني —

بدء الحديث

بعد ان استراح شيخنا قليلا بادره الشاب بالسؤال قائلا. من أين أنت ياهذا وما اسمك وإلى أين قاصد؟ فاجاب الشيخ وقال. اما من أين أنا فاني لا اعرف لي وطنا مخصوصاً أعيش هنا وهنا اطوي الفيافي والقفار وازور المدن والقرى متنقلا من مكان إلى مكان في أرض الله الواسعه ليس لي مقصد سوى البحث والتنقيب اراقب الطبيعة واستجليها المكنون لعلي اهتدي إلى سر وجودي وسر الوجود فادعني